الحبّازي، مشهور. مجلة القدس للبحوث الأكاديمية
نسخة العلوم الإنسانية والاجتماعية 1 (3): 60 - 52، 2024.
DOI: https://doi.org/10.47874/2024pp:52-60

نظام الفتوة الناصريّة في كتاب "الفتوة" لابن المعمار البغداديّ

مشهور الحبّازي

الملخص

شكلت بداية القرن السابع الهجريّ/ الثالث عشر الميلاديّ علامة فارقة في تاريخ الخليفة العباسيّ الناصر لدين الله المتوفى سنة (٦٢٢ للهجرة الموافق ١٢٢٤ للميلاد)، وفي تاريخ الدولة الإسلامية، حيث بدأ الخليفة العباسيّ بإصلاحات واسعة، ومهمة في المجتمع الإسلاميّ بعامة، وفي مجتمع بغداد والعراق بخاصة، وكان من أهم تلك الإصلاحات: أن قام بإجراء تغيير شامل وكامل في نظام الفتوة الّذي كان شائعًا في مناطق واسعة من الدولة الإسلاميّة بعامة، وفي العراق بخاصة، فقد قام بإلغاء نظام الفتوة الّذي كان قائمًا(القديم)، وأسّس نظام فتوة جديد عُرف باسم "الفتوة الناصريّة"، بحيث تكون هذه الفتوة في أي مكان من العالم الإسلاميّ الخاضع لسلطة الخلافة العباسيّة تتبع بالولاء للخليفة الناصر لدين الله شخصيًّا؛ فهو يُدخل الناس في الفتوة، وهو يسأل أمراء الأطراف والملوك والسلاطين في الدولة الإسلاميّة الدخول في الفتوة، وهؤلاء الأمراء والملوك والسلاطين يسألون أفراد شعوبهم، نيابة عن الخليفة، الدخول في الفتوة، وبحيث يدخل في "الفتوة الناصريّة" الجديدة المسلمون كلّهم؛ الأصاغر والأكابر حسب تعبير ابن المعمار البغداديّ في كتابه» الفتوة» الّذي وضع فيه بأمر من الخليفة العباسي الناصر لدين الله النظام الجديد للفتوة.

الكلمات المفتاحية : الفتوّة، النّاصر لدين الله، الأخيّة، ابن المعمار البغداديّ، شراب الفتوّة.

The Nasiriyah Fatwa System through the Book “The Fatwa” by Ibn Al-Mimar Al-Baghdadi

Abstract

The beginning of the Vth / ١٣th century AD was a milestone in the history of the Abbasid Caliph Al-Nasir Ladin Allah, who died in ٦٢٣ AH (١٢٢٥ AD), and in the history of the Islamic State, where the Abbasid caliphate began wide and important reforms in the Islamic community in general, and in the society of Baghdad and Iraq in particular, and the most important of these reforms were: He made a comprehensive and complete change in the bullying system, which was common in large areas of the Islamic state in general, and in Iraq in particular, he abolished the old bullying system existed in old times, and founded a new Fatwa known as the «Bullying Nasiriyah», so that the bully anywhere in the Islamic world under the authority of the Abbasid caliphate followed loyalty to the caliph that triumphed the religion of God personally. He allows people to join in the bully, and he asks the princes of the parties and kings and sultans in the Islamic state to join the bully, as well. And these princes, kings and sultans ask their people, on behalf of the Caliph, to join the bully, thus all Muslims joined the new «Bullying Nasiriyah»; the younger and the most powerful, according to the expression of Ibn al-Mu›ammar al-Baghdadi in his book «Al-Fatwa», in which he ordered by the order of the Abbasid Caliph Al-Nasir to the religion of God the new system of fatwa.

Keywords: Al-Fatwa, Al-Nasser li-Din Allah, Al-Akhiya, Ibn Al-Mimar Al-Baghdadi, Sharab Al-Fatwa.

أ.د. مشهور عبد الرحمن الحبّازي، عميد كلية الآداب في جامعة القدس ، للمراسلة: mhabazi@staff.alquds.edu
حقوق النشر 2024، جميع البيانات الواردة في هذا المقال محمية ويجب أخذ إذن استخدام عن طريق جامعة القدس (www.alquds.edu).

مقدمة

اختلف الدّارسون في تحديد تاريخ نشأة الفتوّة، كما اختلفوا في تحديد نشأة كثير من الحركات الّتي ظهرت في المجتمع الإسلاميّ، عبر التاريخ الإسلاميّ الطويل. ولكنّ الأرجح أنّها ظهرت منذ العصر الجاهليّ، لكن بنظام، ومسمّى مختلف، ودلالة-إلى حدّ ما-مختلفة، ثم تطوّرت في عصر صدر الإسلام إلى مسمّى الفتوّة، وأخذت دلالة واضحة، لكن من غير أن تكون تنظيمًا اجتماعيًّا، أو سياسيًّا واضح المعالم، وتوالت التطوّرات على هذا الاسم عبر العصور، حتى طرأ عليها في (القرن الخامس الهجريّ/الحادي عشر الميلاديّ) تغيير أدى إلى انحرافها عن الهدف الأساس الّتي وُجدت من أجله، وفي (القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) أصبح التغيير يُشكّل انحرافًا واضحًا، حيث تسّمت بعض الجماعات بمسمّيات مختلفة، ولا تدل على الدلالة الّتي حملتها فئة الفتوة، منذ نشأتها، وفي (نهاية القرن السادس، وبداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي)، شكّلت بعض تلك الجماعات خطرًا على المجتمع الإسلاميّ، وبخاصة في مركز الخلافة الإسلاميّة العباسيّة العراق بعامة، وبغداد بخاصّة، ما دفع الخليفة النّاصر لدين الله العباسيّ يُقدم على حلّ الفتوّة، وتأسيس فتوّة جديدة، بنظام فتوّة خاص، دوّنه له أحد مستشاريه، وهو أبو عبد الله محمد بن أبي المكارم المعروف بابن المعمار البغداديّ، في كتاب بعنوان "الفتوّة"، فأقبل على الفتوّة العامة والخاصّة على حدّ سواء.

وفي هذا البحث تناولت بإيجاز غير مُخلّ ما أحدثه الخليفة النّاصر لدين الله العباسيّ، رضي الله عنه، في هذا الشأن، وذلك على النّحو الآتي:

الفتوة: تعريفها، ومفهومها عند الخليفة النّاصر

أ-تعريفها لغة

الفتوة: اسم مُشتق من لفظ: فتى، ويُصرّف منه الفتاء والفتوّة، وهو الشّاب، بل الشاب الكامل. وقيل: الفتوّة القوّة؛ لأنّ الشباب مصدرها في العادة والعرف العربيين قبل الإسلام. ومصدر فتى: فَتِيَ فتىً، ومُثناه فَتَيَان، وفَتَوان، وجمعه فِتيانٌ، وفِتيةٌ، وفتوّة، وجعلت لفظة فتى صفةً للمولود في مرحلة عُمريّة عندما يتجاوز مرحلتي الطفولة والصّبا، ويصل مرحلة الشباب. وعليه، فالفتوّة اسم، وقد أطلقها العرب على الإنسان والحيوان، فالأفتاء من الحيوان غير المسانّ، وكذلك في الإنسان، وجعلوا الفتى رسمًا للذّكر والأنثى، فقالوا: فتى بمعنى شاب، وفتاة بمعنى شابة.

ثمّ تطوّر معنى الفتوّة عبر الزمن تطوّرًا سريعًا، ومهمًّا مع بقائها شأنًا فرديًّا، ولم تصل إلى التنظيم الجماعيّ إلّا في (القرن الرابع الهجريّ/ العاشر الميلاديّ): "ولكنّها كانت إلى ذلك العهد، أمرًا فرديًّا، لا وجود له في جماعة مُنظّمة. ولا يُعرف نظام اجتماعيّ لأهل الفتوّة إلّا في عصر متأخر" (عفيفي، ٢٠١٥، (ص٢٧). وانظر: أمين، ٢٠١٢، ص١١).

ب-تعريفها اصطلاحًا

الفتوّة في الاصطلاح هي: تنظيم سياسيّ وعسكريّ، وجهاديّ وتربويّ، أنشأه الخليفة العباسيّ الناصر لدين الله، أحمد بن محمد، المستضيء بنور الله سنة (١١٨٢/٥٧٨)، وفي سنة (١٢٠٧/٦٠٤) أصدر مرسومًا حدّد فيه قواعد الفتوّة، وفي سنة (١٢١٠/٦٠٧) كتب إلى ملوك دولته، وسلاطينها الدّخول فيه، ونشره في بلاده. وتولّى الخليفة النّاصر لدين الله هو نفسه رئاسة الفتوّة.

ت-مفهوم الفتوّة عند الخليفة النّاصر

كان الخليفة النّاصر لدين الله، عالمًا بأحوال الدّولة الإسلاميّة في الدّاخل والخارج، وحالة الضعف والصّراع تتقاذفها داخليًّا، والعدوّ تجرأ واحتلّ قبلتها الأولى، ومعراج رسولها، صلّى الله عليه وسلّم، وثالث مساجدها الّتي يُشدّ إليها الرّحال، طلبًا لمضاعفة الأجر والثواب، وعليه رأى أن عملية الإصلاح، والنهوض تبدأ من الدّاخل، فقرّر إلغاء جماعات الفتوّة والعيارين والشّطّار وغيرها، ووقْفِ إفسادها في المجتمع، وبين رجال الدّولة، وإعادة بنائها في جماعة واحدة تحقّق رؤيته الإصلاحيّة، فأسّس فتوّة جديدة، تربويّة جهاديّة، ضمّت جميع الجماعات والتنظيمات الإسلاميّة الموجودة في العراق، ثم أمر بنشرها في الولايات والبلاد الخاضعة لسلطته.

وقد ساعده على خطوته تلك أربعة أمور هي: قوّة شخصيّته، ورغبته بالإصلاح، والنهوض بالدّولة، عبر استرداد صلاحياته الّتي سلبها بعض الملوك والسلاطين من سلفه. ثم تأييد العامة للفتوّة بمعناها النبيل، وأخلاقها الإسلاميّة، وانتشارها بين المتصوّفة، الّذين كانوا يرغبون بصلاحها، ووقف تدهورها. ثم ظهور ملوك مجاهدين، مستعدين للتضحية، ومساندة مركز الخلافة، وبخاصة السلطان صلاح الدّين الأيوبيّ، رضي الله عنه، وأخيرًا وجود جماعات من الفتوّة الصالحة، الّتي كانت تُحارب الأمراض الّتي تنهش جسد الدولة في الدّاخل، وتُشارك في حركة الجهاد المقدّس الّتي تولّى قيادتها صلاح الدّين الأيوبيّ.

أخذ الخليفة النّاصر لدين الله الفتوّة من شيخه الزاهد عبد الجّبار بن يوسف البغداديّ (١)، بعدما كان عيّنه رئيسًا لها، ثم تدرّج هو في مراتب الفتوّة على يديّ شيخه حتى أصبح رئيسًا لها، ثم طلب من ابن المعمار وضع نظام لها، ثم أرسل للسلاطين والملوك والأمراء في دولته يطلب منهم التفتّي عليه، وأن يقوموا هم أنفسهم بنشر الفتوّة في بلادهم، وبذلك عمّت، واتسعت، وذاع صيتها داخل الدولة، وخارجها، حتى قيل: إنّها أثّرت في الغرب المسيحيّ، وبخاصة في نظام الفروسيّة.

قال ابن المعمار:"ولم تزل الفتوّة تنتقل، هلمّ جرا، إلى عصرنا هذا [بداية القرن السّابع الهجريّ/ الثالث عشر الميلاديّ] حتى تفرّعت، وصارت بيوتًا، وأحزابًا، وقبائل كالرّاهاصية، والخليليّة، والشحينيّة، والمولّدية، والنّبوية، لِما حدث بينهم من الاختلاف، وكلّ منهم ذهب إلى رأي، ولقد كانوا يحكمون ببطلان مَنْ لم يُحاضروه، وينقلون مَنْ ينقلون عنها أبكارًا، فلمّا لم يقضوا في الفتوة بأحكامها، ولم يقصُّوا فيها أثر السّلف الصّالح، وينسجوا على منوالهم، كثر الاختلاف بينهم ... فلمّا انتهى ذلك إلى عصر سيّدنا ومولانا الإمام النّاصر لدين الله، أمير المؤمنين، صلوات الله عليه، أنعم نظره التام، وفحصه الكامل في النّسب، واختار كبيرًا في الفتوّة الشيخ الصّالح الزّاهد، العابد السّعيد، عبد الجبار بن صالح البغداديّ، رحمة الله عليه، لما كان عليه في الحقيقة من حسن السيرة والطريقة" (ابن المعمار، ١٩٥٨: ص١٤٥-١٤٧).

العوامل الّتي ساعدت على إعادة تأسيس الفتوّة

ساعدت عوامل عديدة الخليفة النّاصر على إعادة تأسيس الفتوّة، وتشكيلها، وأهمها (ابن جبير ٢٠٠٠: ص٢٠٣، ٢٠٦، ٢٢٣ وغيرها؛ ابن المعمار١٩٥٨: ص١٤٦؛ أبو شامة المقدسي ١٩٧٤: ١٨٤/٢، ٢٠٣؛ جواد ١٩٥٨/١٣٧٧: ص ٦٤؛ الدّسوقيّ ١٩٥٩: ص٢٥١-٢٥٢، ٢٧٩-٢٨٣):

١- رغبة الخليفة في توحيد ما يُمكن من البلاد الإسلاميّة تحت سلطة الخلافة، وإحياء همّة المسلمين، وتجديد قوتهم، وبعث روح الجهاد في نفوس أبناء الأمة؛ لمواجهة الحملات الصليبيّة، ودحرها، وتحرير الأرض الإسلاميّة. ووقف الصراع والاقتتال بين بعض الأمراء والملوك المسلمين، وبخاصة أمراء وملوك الكرج والسّلاجقة في شمال بلاد الرافدين، وشرقها.

٢- وقف الانحرافات الّتي كانت قد لحقت بتنظيم الفتوّة سواء أكان ذلك في السلوك الشخصي، أم في النظم، أم في التعامل مع المجتمع، والتخلّص من الفساد الّذي كانت بعض الفئات تنشره باسم الفتوّة.

٣- تشكيل فرق عسكريّة مقاتلة من الفتيان الّذين انضمّوا حديثًا لنظام الفتوّة، بحيث يتم إعدادها ماديًّا ومعنويًّا للمساهمة في حركة الجهاد الإسلاميّة ضد الصليبيين. وقد عيّن الخليفة النّاصر لدين الله قادة تلك الفرق من الأشخاص العلماء، الّذين انتسبوا في فتوّتهم إلى علي بن أبي طالب، كرّم الله وجهه، والّذي تفتّى-بدوره-على رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، ما يُكسب الفتيان في تلك المجموعات روحًا معنويّة عالية، كما عيّن قادة لبعض الفرق من الأمراء، والقادة العسكريين في البلاد الإسلاميّة.

٤- بعث روح الجهاد، والأخلاق الإسلاميّة العظيمة في نفوس الفرق العسكريّة الّتي تمّ تشكيلها من الفتيان، ما يُحرّضهم على مواجهة وحشية الفرنجة، وفي وقت لاحق المغول (التتّار)، وبربريّتهم، وقد سرد عدد من المؤرّخين المسلمين نماذج من هذه الروح الإسلاميّة، الّتي برزت في مواقع جهاديّة عديدة، ومنها:

أ. عندما فتح صلاح الدّين الأيوبيّ القدس سنة (٥٨٣هـ)، أصدر عفوًا عن النصارى، وأخذ الفدية من القادرين منهم، وفق حالة كل فئة.

ب. عندما احتل الصليبيّون مدينة عكا سنة (٥٨٧هـ)، وبينما كانت الجيوش الإسلاميّة تُحاول استردادها، شكّلوا وحدات عسكريّة، وكلّفوها مهمّة الهجوم على معسكرات العدو ليلًا، لإرباك الصليبيّين، وبعث الخوف والفزع في نفوسهم، فكانوا يسلبون، ويأخذون الأسرى، وفي إحدى المهام كان من بين الغنائم طفل رضيع، فلمّا فقدته أمّه، أخذت تبكي، فنصحها النّصارى التوجّه إلى السلطان صلاح الدّين-لِما عرفوه به من رحمة وشفقة- فلمّا وصلته، وأعلمته الأمر، أمر بردّهُ لها، قال أبو شامة المقدسيّ: "قال القاضي: وكان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدو؛ فيسرقون منهم حتى الرّجال، ويخرجون، فأخذوا ذات ليلة طفلًا رضيعًا، له ثلاثة أشهر، فلمّا فقدته أمه، باتت مُستغيثة بالويل والثُّبور في طول تلك اللّيلة، حتى وصل خبرها إلى ملوكهم، فقالوا لها: إنّ السّلطان رحيم القلب، وقد أذِنّا لك في الخروج إليه، فاخرجي واطلبيه منه، فإنّه يَردّهُ عليك، فخرجت تستغيث إلى اليزك الإسلاميّ (٢) ، وأخبرتهم بواقعتها، فأطلقوها، وأنفذوها إلى السّلطان، فأتته وهو راكب على تلّ الخروبة، وأنا في خدمته، وفي خدمته خلق عظيم، فبكت بكاءً شديدًا، ومرّغت وجهها في التُّراب، فسأل عن قصّتها، فأخبروه، فرقَّ لها، ودمعت عينه، وأمرَ بإحضار الرّضيع، فمضوا، ووجدوه قد بيع في السوق، فأمر بدفع ثمنه إلى المشتري، وأخذه منه. ولم يزل واقفًا، رحمة الله عليه، حتّى أُحضر الطّفل، وسُلّم إليها، فأخذته، وبكت بكاءً شديدًا، وضمّته إلى صدرها، والنّاس ينظرون إليها، ويبكون، وأنا واقف في جملتهم، فأرضعته ساعة، ثم أمر بها، فحُمِلت على فرس، وأُلحقت بمعسكرهم مع طفلها. قال: فانظر إلى هذه الرّحمة الشّاملة لجنس الإنس. اللّهمَّ إنّك خلقته رحيمًا، فارحمه رحمةً واسعة، آمين" (أبو شامة المقدسيّ ١٩٧٤ : ١٨٤/٢).

ج. حاول ملوك الفرنجة، ومنهم ملك إنكلترا سنة (٥٨٨هـ) احتلال القدس، ولمّا فشلوا في ذلك، طلبوا الصّلح مع السّلطان صلاح الدّين الأيوبيّ، وفي أثناء المفاوضات بين الطرفين، حصل أن مرض ملك الإنجليز، فطلب الفاكهة والثلج، ولم تكن موجودة عندهم، فأمر السّلطان صلاح الدّين الأيوبيّ بِمَدّه بحاجته من الفاكهة والثلج؛ وذلك على الرّغم من سوء سلوكه مع المسلمين وقت قوّته؛ حيث كان غدر بالمسلمين في عكا عندما احتلها الصليبيّون، وارتكب الفواحش فيهم في وضح النّهار، قال أبو شامة المقدسيّ نقلًا عن

(١) هو: عبد الجبار بن يوسف صالح البغدادي (ت ٥٨٣هـ)، من أهل محلة باب الأزج ببغداد، كان شيخا صالحًا، يعمل في البساتين، ويتعبد بصومعة له باب كلواذا ببغداد، وتولّى مشيخة الفتيان الصوفيّة في بغداد، فأخذ عنه الناصر الفتوة، وألبسه سراويلها، حج سنة (٥٨٣هـ) وتوفي بمكة المكرّمة حاجًا، ودفن بمقبرة باب المعلا. له ترجمة في: ابن

القاضي الفاضل: «وهو [أي ملك الإنجليز] لعنه الله، قد أتى بأقبح الغدر، وأفحشه في أهل عكا نهارًا جهارًا، وشهد فيها بخزيه، وفضيحته المسلمون والنّصارى»(أبو شامة المقدسي ١٩٧٤ : ٢.٣/٢). وقال أبو شامة المقدسيّ في مرض ملك الإنجليز: «ولمّا رأى السلطان [أي صلاح الدّين الأيوبيّ] العساكر قد اجتمعت، جمع أرباب الرأي، وقال: إنّ ملك الإنكليتيرة قد مرض مرضًا شديدًا، والإفرنسيسية قد ساروا راجعين، ليعبروا البحر من غير شك، ونفقاتهم قد قلّت، وأرى أن نسير إلى يافا... هذا ورسل الإنكليتيري لا تنقطع في طلب الفاكهة والثلج، وأوقع الله عليه في مرضه شهوة الكمثرى والخوخ، وكان السّلطان يَمُدّهُ بذلك، ويقصد كشف الأخبار بتواتر الرّسل ... فسار السّلطان إلى جهة الرّملة، وجاء رسول الإنكليتيري مع الحاجب أبي بكر يشكر السّلطان على إسعافه بالفاكهة والثلج»(أبو شامة المقدسي ١٩٧٤ : ٢.٣/٢).

٥- محاربة الرافضة من الشيعة بعامة، وفرق الإسماعيليّة (الحشّاشين) بخاصّة، الّتي انتشر أفرادها (الفدائيّة) في أرجاء دولة الخلافة الإسلاميّة، وقاموا بأعمال انتقاميّة ضد المسلمين بعامة، والقادة المسلمين بخاصة بحجّة قضائهم على الدولة العبيديّة، وقد قتلوا غيلة عددًا من القادة بالتعاون مع الصليبيين، وخدمة لهم، كما حاولوا اغتيال صلاح الدّين الأيوبي ثلاث مرّات.

٦- محاربة بعض الفرق الضالة الّتي تكوّنت في بعض البلاد الإسلاميّة، حيث شكّلت خطرًا كبيرًا على وحدة المجتمع الإسلاميّ، وقدرته على الصمود في وجه الصليبيين، ومحاربتهم، ودحرهم وتحرير البلاد الّتي احتلوها منهم. حيث بادرت بعض فرق الفتوّة إلى مطاردة عدد من الفرق الضالة، وقضت عليها. قال ابن جبير: «وللشّيعة في هذه البلاد أمور عجيبة، وهم أكثر من السّنيين بها، وقد عمّوا البلاد بمذاهبهم. وهم فرق شتّى: منهم الرّافضة وهم السّبّابون، ومنهم الإماميّة، والزّيديّة، وهم يقولون بالتّفضيل خاصة، ومنهم: الإسماعيليّة، والنّصيريّة وهم كفرة؛ فإنّهم يزعمون الإلهية لعلي، رضي الله عنه، تعالى الله عن قولهم. ومنهم: الغرابية، وهم يقولون إنّ عليًا، رضي الله عنه، كان أشبه بالنّبي، صلّى الله عليه وسلّم، من الغراب بالغراب، وينسبون إلى الرّوح الأمين، عليه السلام قولًا، تعالى الله عنه علوًّا كبيرًا، إلى فرق كثيرة يضيق عنهم الإحصاء، قد أضلّهم الله، وأضلّ بهم كثيرًا من خلقه. نسأل الله العصمة في الدّين، ونعوذ به من زيغ الملحدين»(ابن جبير ... ٢ : ٢٢٣).
ثمّ ذكر ابن جبير واحدة من فرق الفتوّة المجاهدة؛ لتنقية المجتمع الإسلاميّ من عوامل الهدم والضعف الدّاخليّة، والّتي كان لها فضل القضاء على بعض فرق الرافضة، وهي فرقة تُسمّى «النّبويّة» قال: «وسلّط الله على هذه الرّافضة طائفة تُعرف بالنّبويّة؛ سُنّيون، يدينون بالفتوّة، وبأمور الرّجولة كلّها، كلٌّ من ألحقوه بهم؛ لخصلة يرونها فيه منها، يحرمونه السّراويل، فيلحقونه بهم، ولا يرونَ أن يستعدي أحد منهم في نازلة تنزل به، لهم في ذلك مذاهب عجيبة، وإذا أقسم أحدهم بالفتوّة برّ قسَمَهُ. وهم يقتلون هؤلاء الرّوافض أينما وجدوهم، وشأنهم عجيب في الأنفة والائتلاف»(ابن جبير ... ٢ : ٢٢٣).
وقد ذكر ابن جبير بعض الأعمال الّتي قامت بها هذه الفرقة، وكان شاهدها، أو علمها في رحلته مِمّن التقاهم من العلماء، قال يذكر بلدة الباب قضاء حلب، وسكانها من الإسماعيليّة الروافض، الّذين كانوا عاثوا فسادًا في الأرض حولهم، وفي أهلها من المسلمين حتى قاموا عليهم، وأفنوهم، قال: «هي باب بين بزاغة وحلب، وكان يَعْمُرها منذ ثماني سنين قوم من الملاحدة الإسماعيليّة، لا يُحْصي عددهم إلّا الله، فطار شرارهم، وقطع هذه السبيل فسادهم وإضرارهم، حتى داخلت أهل هذه العصبية، وحرّكتهم الأنفة والحميّة، فتجمّعوا من كُلّ أوب عليهم، ووضعوا السيوف فيهم، فاستأصلوهم عن آخرهم، وعجّلوا بقطع دابرهم، وكُوّمت بهذه البطحاء جماجمهم، وكفى الله المسلمين عاديتهم وشرّهم، وأحاق بهم مكرهم. والحمد لله ربّ العالمين. وسكّانها اليوم سنّيون»(ابن جبير ... ٢ : ٢.٣).
كما وصف بعض حصون الإسماعيليّة، الّتي كانت منطلقًا لغاراتهم على المسلمين، في سفوح جبل لبنان، وكانوا ينفّذون الغارات بأوامر مباشرة من زعيمهم المدعو «سنان»، قال: «وراءها [أي بلاد المعرّة] جبل لبنان، وهو سامي الارتفاع، مُمتدّ الطول، يتّصل من البحر إلى البحر، وفي صفحته حصون للملاحدة الإسماعيليّة؛ فرقة مرقت من الإسلام، وادّعت الإلهية في أحد الأنام، قيّض لهم شيطان من الأندلس، يُعرف بسنان، خدعهم بأباطيل وخيالات، مَوّه عليهم باستعمالها، وسحرهم بمحالها، فاتّخذوه إلهًا يعبدونه، ويبذلون الأنفس دونه، وحصلوا من طاعته، وامتثال أمره، بحيث يأمر أحدهم بالتّردّي من شاهقة جبل، فيتردّى، ويستعجل في مرضاته الرّدى. والله يضلُّ به، سبحانه، من الفتنة في الدّين، ونسأله العصمة من ضلال المُلحدين، لا ربّ غيره، ولا معبود سواه. وجبل لبنان المذكور هو حدّ بين بلاد المسلمين والإفرنج؛ لأنّ وراءه أنطاكية واللّاذقية وسواهما من بلادهم، أعادها الله للمسلمين، وفي سفح الجبل المذكور حصن يُعرف بحصن الأكراد، وهو للإفرنج، ويُغيرون منه على حماة وحمص، وهو برأس العين منهما»(ابن جبير ... ٢ : ٢.٦).

٧- أراد الخليفة النّاصر لدين الله، الإفادة من الظروف الّتي كانت سائدة في الدّولة الإسلاميّة، ومحيطها، حيث كان صلاح الدّين الأيوبيّ قضى على الدّولة العبيديّة، كما ضعفت الممالك والإمارات السّلجوقية لأسباب كثيرة، أهمها نزاعها الدّاخليّ، وصراع بعضهم مع صلاح الدّين الأيوبيّ، ويُقابل ذلك إعلان صلاح الدّين الأيوبيّ-كما فعل سلفه نور الدّين زنكيّ- ولاءه للخلافة العباسيّة، وإشهاره الخطبة للخليفة العباسيّ على منابر مصر والشّام، ما أدّى إلى تعزيز الثقة بين الخليفة، وصلاح الدّين الأيوبيّ، وهذه الظروف أشعرت الخليفة بالقوّة، فأراد استغلالها لبعث هيبة الخلافة العباسيّة في نفوس العامّة، والخاصّة، وبالتالي العمل بنشاط لتدعيم أُسس الخلافة، واستعادة سلطتها الّتي كانت مستباحة منذ زمن ليس قصيرًا.

انتشار الفتوّة

عندما تولّى الخليفة النّاصر لدين الله العباسيّ-بالتدريج-رئاسة الفتوّة، ومشيختها، من شيخه الشيخ عبد الجبّار، فكّر بوضع قانون ينظّمها في كلّ المجالات؛ فطلب من ابن المعمار البغداديّ وضعه؛ فوضعه، ثم فكّر في نشر الفتوّة بين الملوك والسّلاطين والأمراء، فأرسل إليهم رسلًا وطلب منهم التّفتّي عليهم، وطالبهم بنشر الفتوّة في الخاصة والعامة على حدّ سواء. وقد تعهّد بحماية الفتوّة الجديدة من الشوائب الّتي يمكن أن تلحق بها.

اكتسبت الفتوّة الجديدة سمعة حسنة عندما تولّى الخليفة رئاستها، ومشيختها، ما دفع الناس إلى الدخول في الفتوّة اقتداء بالخليفة النّاصر لدين الله العباسيّ، الّذي وُصفه ابن المعمار بقوله «ولقد خُلق هذا العباسيّ ليكون خليفة، ويُسِّرَ لأنّ يكونَ إمامًا، وقد أبطلَ بسيرته قول مَنْ يقول باستحالة الجمع بين رعاية الدّين والدّنيا في رجل واحد، دنيا الحضارة الكاملة لا دنيا الزّهد والبداوة»(ابن المعمار ١٩٥٨ : ٥١). فذاع صيت الفتوّة، وأخذ الناس يُقبلون عليها، حتى أكّد انتشارها، في العراق، وباقي البلاد الإسلاميّة، بين عامة الناس وخاصتهم، أكثر من مؤرّخ، وأديب، ومنهم:

١- قال القاضي إبراهيم بن أبي الدّم: «ثم تفتّى إلى النّاصر لدين الله خلق من الملوك والأكابر، وكان هذا الفعل يستحثُّ الناسَ على: التّعاضد، والتّناصر، وحفظ العهد، وكتمان السّر، وصدق اللّهجة، والعفّة عن المحارم، وأرباب الفتوّة يُسندونها بالعنعنة [أي عن فلان عن فلان] إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، عليه السّلام، وناهيك بذلك شرفًا، وفخرًا، وعظمة وقدرًا»(ابن المعمار ١٩٥٨ : ٥٢).

٢- قال ابن المعمار البغداديّ: «فعند ذلك، طفق النّاس؛ فضلاؤهم، وبهاليلهم مُهرعين إلى التّشرّف بالانتماء إليه، صلوات الله عليه [يعني الخليفة النّاصر] لِما اتّصف به من الأخلاق النّبويّة، والخِلال الطّاهرة الزّكية، حتّى استرقَّ بجوده أهل البلاد، وأُشرب حبّه في قلوب العباد، وسلكوا إلى تشريفه فجاجًا، ودخلوا في حزبه أفواجًا»(ابن جبير . . . ٢ : ٥٣).

٣- قال ابن الساعي، علي بن أنجب: «وكان النّاصر قد شرّف عبد الجبّار بالفتوّة إليه، وكان شيخًا مُتزهّدًا، فدخل في ذلك النّاس كافّة من الخاص، والعام ... وانتشر ذلك ببغداد، وتفتّى الأصاغر والأكابر»(ابن جبير . . . ٢ : ٥٦).

٤- قال صلاح الدّين الصفديّ: «وظهرت الفتوّة، والبندق، والحمام الهوادي. وتفنّنَ الناس في ذلك، ودخل فيه الأجلّاءُ، ثم الملوك»(الصّفدي ١٩١١/١٣٢٩).

٥- قال ابن الطقطقيّ: «وتفتّى له [النّاصر لدين الله] خلق كثير من شرق الأرض وغربها، ورمى البندق، ورمى له ناس كثيرون»(ابن المعمار ١٩٥٨ : ٧١).

٦- قال ابن الأثير: «فأجابه النّاس بالعراق وغيره إلى ذلك، إلّا إنسانًا واحدًا يُقال له: ابن السّفت من بغداد، فإنّه هرب من العراق، ولحق بالشّام، فأرسل إليه النّاصر يُرغّبه في المال الجزيل، ليرمي عنه، وينتسب في الرّمي إليه، فلم يفعل، فبلغني أنّ بعض أصدقائه، أي أصدقاء ابن السّفت، أنكر عليه الامتناع من أخذ المال، فقال: يكفيني فخرًا أنّه ليس في الدّنيا أحد إلّا رمى للخليفة النّاصر إلّا أنا»(ابن المعمار ١٩٥٨ : ٧١).

أمّا نشر الفتوّة بين ملوك الولايات الإسلامية، وسلاطينها، وأمرائها، فقد تمّ من خلال طلب الخليفة منهم التّفتّي عليه، أو على مَنْ يوكّله بذلك، وقد تمّ ذلك على النحو الآتي:

١- أرسل الخليفة سنة (٥٩٩هـ) وكيلين عنه إلى الملك العادل أبي بكر، الشقيق الأصغر لصلاح الدّين الأيوبيّ، وأولاده، وطلب منهم التفتّي عليهما، قال سبط بن الجوزيّ: «في سنة (٥٩٩هـ) بعث الخليفة النّاصر لدين الله بالخِلع، وسراويلات الفتوّة إلى الملك العادل الأيوبيّ، وأولاده مع علي بن عبد الجبّار، ويوسف العقاب، فلبس الملك العادل الخِلع، والسراويلات في رمضان بدمشق»(سبط ابن الجوزيّ ١٤٣٤ /١٣ ٢ : ١٢٨/٢٢).

٢- في نهاية القرن السادس الهجريّ دخل أغلب ملوك المسلمين في البلاد الخاضعة لسلطة الخليفة الفتوّة ، ومنهم: الملك الظاهر غازي بن صلاح الدّين الأيوبيّ، والملك شهاب الدّين الغوريّ، وصاحب جزيرة كيش، وأتابك سعد، وذلك إضافة إلى الملك العادل وأولاده، قال صلاح الدّين الصفديّ في ترجمته للخليفة النّاصر لدين الله: «ودخل فيه الأجلّاء، ثمّ الملوك، فألبسوا الملك العادل أبا بكر بن أيوب، وأولاده: الملك المعظم، والملك الكامل، والملك الأشرف، سراويل الفتوّة، وألبسوا شهاب الدّين الغوريّ، ملك غزنة والهند، وصاحب جزيرة كيش، وأتابك سعد، صاحب شيراز، والملك الظاهر غازي بن صلاح الدّين، صاحب حلب»(الصفديّ ١٩١١/١٣٢٩ : ٩٣). كما أكّد الأمر ذاته إبراهيم بن أبي الدّم الحمويّ، قال: «ثمّ تفتّى إلى الناصر لدين الله خلق من الملوك والأكابر»(ابن المعمار

١٩٥٨ : ٥٢). وقول ابن السّاعي: «وسأل ملوك الأطراف الفتوّة، فنفذ إليهم الرّسل، ومَنْ ألبسهم سراويلات الفتوّة بطريق الوكالة الشّريفة»(ابن المعمار ١٩٥٨ : ٥٦).

٣- عمّت الفتوّة ملوك الأطراف جميعهم، ومنهم صاحب حماة الأيوبيّ، قال ابن الفرات: «وكانت سائر ملوك الأطراف انتسبوا إليه [أي النّاصر لدين الله] في رمي البندق، وفي الفتوّة. فأبطل الفتوّة في البلاد جميعها، إلّا مَنْ لبس منه السّراويل، ورمى له، فلبس سائر ملوك الآفاق سراويلات الفتوّة له، وادّعوا له في البندق، ووصل رسوله إلى حماة في أيام الملك المنصور [ناصر الدّين محمد بن تقي الدّين] الأيوبيّ صاحب حماة، وأمره أن يلبس للخليفة، ويلبس له الأكابر، فأمر الملك المنصور الشّيخ سالم بن نصر الله بن واصل الشافعيّ الحمويّ بعمل خطبة في الفتوّة، فعمل خطبة بديعة في هذا المعنى ... فقرئت هذه الخطبة بحضرة الملك المنصور. وكان قاضي حماة في ذلك الزمان القاضي برهان الدّين، أبو اليسر بن موهوب، فأمروا الملك المنصور بلبس سراويل الفتوّة في المجلس، فلبسها، ولبسها جماعة»(ابن المعمار ١٩٥٨ : ٦٩).

تجديد الفتوّة

على الرّغم من كل ما قام به الخليفة الناصر لدين الله من أعمال لإصلاح نظام الفتوّة إلّا أنّ بعض جماعات الفتوة ارتكبت جرائم بحقّ المسلمين في بغداد، وغيرها من المدن الإسلامية، ولم تلتزم بالنّظام الّذي وضعه الخليفة للفتوّة؛ لذلك قرّر الخليفة القيام بخطوة كبيرة بهدف إصلاح نظام الفتوّة، وتجديد قواعده. وذلك من خلال الآتي:(ابن المعمار ١٩٥٨ : ٦٢).

١- إلغاء كل أشكال الفتوّة الّتي كانت قائمة قبل شهر صفر سنة (٦٠٤هـ)، وإهدار كلّ مَنْ لم يأخذ الفتوّة عنه مباشرة.
٢- أن يكون الخليفة نفسه هو مصدر التّفتيّ لأي شخص يُريد الالتحاق بنظام الفتوّة، فأصبح الخليفة هو قبلة التّفتّي.
٣- دعوة كل شخص لم يتفتّ على الخليفة إلى تجديد فتوّته، بأن يتفتّى على الخليفة، وهذا شكّل إعادة إلتحاق بالفتوّة، وتجديد لها.
٤- توزيع منشور الفتوّة الّذي كتبه كاتب ديوان الإنشاء مكين الدّين، أبو الحسن، محمد بن محمد المقداديّ القمّي، بأمر من الخليفة، وعليه شهادة ثلاثين من عدول بغداد، على رؤوس أحزاب الفتوّة للالتزام بما ورد فيه. وذُيّل المنشور بالتزام كلّ رئيس بما ورد فيه، وإقراره بذلك تحت طائلة العقوبة، مع توقيع الرئيس، وتاريخ التوقيع (انظر المنشور كاملًا ابن المعمار ١٩٥٨ : ٦٤-٦٦).

يُلاحظ من قراءة منشور الفتوّة، أنّه تضمّن تجديد أحكام الفتوّة العامة، وسرد آدابها جميعها، وشدّد على ضرورة الالتزام بما ورد فيه من كلّ فتى، تحت طائلة العقوبة، حيث الفتوّة لا تمنح صاحبها حصانة من العقاب، بل رفع الفتوّة عن صاحبها؛ لتنفيذ العقوبة المستحقّة، حتى لو كانت القتل بالقصاص. وأهم ما تضمّنه المنشور هو:
١- كلّ فتى يقتُل رفيقًا له في الفتوّة، يُجرّد من الفتوّة، ثم يُقام عليه القصاص.
٢- يُمنع أي فتى من إخفاء القاتل، أو مُساعدته، ومَنْ حوى ذا عيب عاب، ومَنْ آوى طريد الشّرع؛ ضلّ وهوى.

إعادة نشر الفتوّة

بعد أن أقدم الخليفة النّاصر لدين الله على تجديد الفتوّة، وضبطها من خلال المنشور الّذي تمّ توزيعه على رؤوس أحزاب الفتيان، راسل الخليفة النّاصر لدين الله الملوك والسلاطين والأمراء المسلمين، وطلب منهم التّفتّي عليه، ونشر الفتوّة في بلدانهم، وشدّد على وجوب الالتزام بما ورد في المنشور الّذي أصبح جزءًا من الفتوّة، ويؤكّد ذلك الآتي:

١- ذكر ابن الأثير أنّ الخليفة النّاصر لدين الله جدّد الفتوّة، فأبطل كل ما كان قائمًا منها، وربط التّفتّي به، فقال: «وجعل النّاصر همّه في رمي البندق، والطيور المناسيب، وسراويلات الفتوة، فبطل الفتوّة في البلاد جميعها إلّا مَنْ يلبس منه سراويل، ويدعى إليه، وكذلك –أيضًا- منع الطيور المناسب لغيره إلّا ما يؤخذ من طيوره، ومنع الرمي بالبندق إلّا مَنْ ينتمي إليه، فأجابه النّاس بالعراق وغيره إلى ذلك إلّا إنسانًا واحدًا، يقال له: ابن السّفت من بغداد، فإنّه هرب من العراق، ولحق بالشّام، فأرسل إليه النّاصر يُرغّبه في المال الجزيل؛ ليرمي عنه، وينتسب في الرمي إليه، فلم يفعل»(ابن المعمار ١٩٥٨ : ٧١).

٢- ذكر ابن الفرات في ترجمة أنّ الخليفة النّاصر لدين الله، أبطل الفتوة، وتفتّى عليه ملوك المسلمين في الأطراف، فقال: «كان النّاصر يميل إلى رمي البندق، والطيور المناسيب، ولبس سراويل النّبويّة، والفتوّة. وكانت سائر ملوك الأطراف انتسبوا إليه في رمي البندق، وفي الفتوّة، فأبطل الفتوّة في البلاد جميعها إلّا مَنْ لبسَ له السّراويل، ورمى له؛ فلبس سائر ملوك الآفاق سراويلات الفتوّة له، وادّعوا له في البندق»(ابن الفرات ١٩٧٥ : ٢/ ٢٣).

٣- ذكر أبو الفداء إسماعيل في حوادث سنة(٦٠٧هـ)، ما فعله الخليفة الناصر لدين الله، قال: «وردت رسل الخليفة النّاصر لدين الله إلى ملوك الأطراف في أن يشربوا كأس الفتوّة، ويلبسوا له سراويلها، وأن ينتسبوا إليه في رمي البندق، ويجعلوه قدوتهم فيه»(أبو الفداء ١٤١٧ /١٩٩٧ :٢/٢٣٢).

كما ذكره-أيضًا- تقيّ الدّين المقريزيّ في حوادث سنة (٦٠٧هـ)، قال: «فيها شرب ملوك الأطراف كأس الفتوّة للخليفة النّاصر، ولبسوا سراويل الفتوّة، فوردت عليهم الرّسل بذلك، ليكون انتماؤهم له، وأمر كلّ ملك أن يسقي رعيّته، ويُلبسهم؛ لتنتمي كلّ رعية إلى ملكها، ففعلوا ذلك، وأحضر كلّ ملك قضاة مملكته، وفقهاءها، وأُمراءها، وأكابرها، وألبس كلًّا منهم له، وسقاه كأس الفتوّة. وكان الخليفة النّاصر مُغرمًا بهذا الأمر، وأمر الملوك –أيضًا-أن تنتسب إليه في رمي البندق، وتجعله قدوتها فيه»(المقريزي ١٤١٨ /١٩٩٧ : ٢٩١/١).

٤- وصف أحمد بن النقّاش حركة التجديد والإصلاح الّتي قام بها الخليفة النّاصر لدين الله في نظام الفتوّة، فقال: «وبعد؛ فإنّ أحزاب الفتوّة كانوا تائهين، وعن الحقّ زائغين، وعلى البواطل مُعتضدين، وبالأماني مُتعلّلين، سلكوا طريق الضلالة، وحادوا عن سبل الهداية، وتأوّلوا الفتن والابتداع، والحيل والخداع. غلبت عليهم الشّقاوة، وتحكّمت في بواطنهم الضّلالة، وكثرة فكرتهم، وقلّة معرفتهم، وضراوة جهلهم بأحكام الفتوّة، وميلهم إلى المكابرة والمجادلة، إلى أن شرّف الله، تعالى، الفتوّة، وكرّمها، وأعلى منارها، وعظّمها بسيّدنا، ومولانا الشّجرة الإماميّة، والدّوحة النّبويّة، والسّلالة العباسيّة، وخليفة الشّريعة الرّبّانيّة، إمام المؤمنين، وخليفة ربّ العالمين، الإمام النّاصر لدين الله، أمير المؤمنين، إمام المشارق، وإمام المغارب، لا إمام للمسلمين سواه، ولا قبلة للدّين إلّا إيّاه، صلّى الله عليه، وعلى آله، وذرّيته؛ فشيّد بنيانها، ومهّد أركانها، وألفّ أحزابها، وأرشد طلابها، وأظهر أنوارها، وأوضح برهانها»(ابن المعمار ١٩٥٨ : ٥٤-٥٥).

٥- في (العقد الأول من القرن السابع الهجريّ/الثالث عشر الميلاديّ) أرسل الخليفة إلى عز الدّين، أبو المظفّر، كيكاووس بن كيخسرو ابن قليج أرسلان الثاني (ت٦١٥هـ)، سراويل الفتوّة. وبذلك كان أول دخول الفتوّة إلى بلاد الرّوم (تركيا اليوم)، ثمّ انتشرت بين العامة والخاصة(ابن المعمار ١٩٥٨ : ٧٠؛ أبو شامة المقدسيّ، ١٩٧٤: ١٣١).

انتشرت الفتوة في مشارق الأرض ومغاربها بفضل جهود الخليفة النّاصر لدين الله وقد أكّد ذلك ابن الطقطقيّ، فقال: «وسمع الخليفة النّاصر لدين الله الحديث النّبويّ، صلوات الله على صاحبه، وأسمعه، ولبس لباس الفتوّة، وألبسه، وتفتّى له خلق كثير من شرق الأرض وغربها، ورمى بالبندق، ورمى له ناس كثيرون»(ابن المعمار ١٩٥٨ : ص٧١). كما أكّد شيوع مظاهرها بعامة، وشرب الماء المالح بخاصة، هندوشاه الصاحبيّ، فقال: إنّ شربة الماء المملوح النّاصريّة، الفتويّة، شرّقت في البلاد وغرّبت (ابن المعمار ١٩٥٨: ٧٠).

الفتوّة (الأخيّة) في بلاد الرّوم (الجمهورية التركيّة اليوم)

كان أول من دخل الفتوة في بلاد الأناضول هو الملك عزّ الدّين، أبو المظفّر، كيكاووس بن كيخسرو بن قلج أرسلان الثاني(ت٦١٥هـ)، حيث تفتّى على يد الخليفة نفسه، ثم تولّى الملك نشرها في بلاده والبلاد المجاورة له (الجمهوريّة التركيّة اليوم) بين الخاصة والعامة.

عندما زار ابن بطوطة بلاد الأناضول (الجمهورية التركية اليوم)، تحدّث عن الفتوّة وانتشارها فيها، وذكر كثيرًا من أحوالها. ويمكن توضيح ذلك على النحو الآتي:

أ- اسم التّنظيم

يسمى تنظيم الفتوّة في بلاد الرّوم باسم «الأخيّة». والأخيّة هي: مفرد أخ مُضاف إلى ياء المتكلّم (أخي)(ابن بطوطة ١٤٠٧ /١٩٨٧: ٢٩٢/١).

ب- الأخي،

هو: رئيس نقابة أهل مهنة أو حِرفة، ينتخبه أعضاء المهنة أو الحِرفة، ويُقدّمونه على أنفسهم. قال: «والأخي عندهم: رجل يجتمع أهل صناعته، وغيرهم من الشبّان الأعزاب والمتجرّدين، ويُقدّمونه على أنفسهم. وتلك هي الفتوّة أيضًا»(ابن بطوطة ١٤٠٧/١٩٨٧ : ٢٩٢/١).

ت- مكان اجتماع الأخيه

يجتمع أخيّة كلّ مهنة في زاوية يبنيها مُقدّمهم معهم، ويُزوّدها بالفرش والسُّرج، وكلّ ما يحتاج إليه من الآلات الّتي تُسّهل اجتماع فتيان المهنة أو الحِرفة فيها، وتُساعدهم على القيام بواجباتهم. «ويبني زاوية، ويجعل فيها الفرش والسّرج وما يحتاج إليه من الآلات»(ابن بطوطة ١٤٠٧/١٩٨٧ :٢٩٢/١). كما أنّهم يستضيفون في زاويتهم الضيوف، فيقدّمون لهم فيها المأكل والمشرب مِمّا يجمعه الفتيان من أعمالهم في النّهار، ثم يُوفّرون له المنامة. «فإنْ ورد في ذلك اليوم مُسافر على البلد أنزلوه عندهم، وكان ذلك ضيافته لديهم، ولا يزال عندهم حتى ينصرف»(ابن بطوطة ١٤٠٧ /١٩٨٧ : ٢٩٢/١).

وقد وصف ابن بطوطة زاوية أخيّة الخرّازينَ (ابن منظور د. ت. : ٣٤٥/٥) الّتي زارها بناء على طلب مقدّمهم، فقال: «وذهبنا معه إلى زاويته، فوجدناها زاوية حسنة، مفروشة بالبسط الرّوميّة الحسان، وبها الكثير من ثريات الزّجاج العراقيّ. وفي المجلس خمسة من البياسيس. والبيسوس: شبه المنارة من النّحاس، له أرجل ثلاث، وعلى رأسه شبه جلاس من النّحاس، وفي وسطه أنبوب للفتيلة، ويملأ من الشّحم المُذاب. وإلى جانبه آنية نحاس ملآنة بالشّحم، وفيها مقراض لإصلاح الفتيل. وأحدهم موكل بها، ويُسمّى عندهم الجراجيّ (الجراغجي). وقد اصطف في المجلس جماعة من الشبان، ولباسهم الأقبية، وفي أرجلهم الأخفاف، وكلّ واحد منهم متحزّم،

على وسطه سكين في طول ذراعين، وعلى رؤوسهم قلانس بيض من الصوف بأعلى كلّ قلنسوة قطعة موصلة بها في طول ذراع، وعرض إصبعين؛ فإذا استقرّ بهم المجلس نزع كلّ واحد منهم قلنسوة، ووضعها بين يديه، وتبقى على رأسه قلنسوة أُخرى من الزّردخانيّ، وسواه حسنة المنظر. وفي وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين»(ابن بطوطة ١٤٠٧/١٩٨٧ : ٢٩٣/١-٢٩٤).

وقد أعجب ابن بطوطة أيّما إعجاب بنظام الأخيّة في بلاد الأناضول، فتحدّث عنه بالتفصيل، وحديثه يحتاج إلى بحث مستقل، ومما تحدّث عنه: رئيس الأخيّة، والأسماء الّتي يحملها، ومنه: المقدّم، والأخي، وشيخ الأخيّة. ثم ذكر الأعمال الّتي يقوم بها شيخ الأخيّة، وأعمال أفراد كل أخية، وزي الأخيّة، وصفاتهم، وطرائق احتفائهم بالضيوف، وغيرها مِمَّا شاهده، وأعجب به(ابن بطوطة ١٤٠٧ /١٩٨٧ : ٢٩٣/١-٢٩٥).

الخاتمة

بعد الانتهاء من كتابة هذا البحث يمكن القول بالنتائج والتّوصيات الآتية:

النّتائج

١. أولى الخليفة النّاصر لدين الله أهميّة كبيرة للفتوّة، فأعاد تشكيلها، ووضع لها نظامًا جديدًا التزم فيه بتعاليم الإسلام، وتولّى رئاستها، ودخل ملوك المسلمين وسلاطينهم الفتوّة على يديه، وطلب منهم نشرها في ممالكهم.

٢. أسباب عديدة دفعت الخليفة النّاصر لدين الله إلى تجديد الفتوّة، منها: القضاء على بعض الفئات الضّالة وما أحدثته من فساد في المجتمع الإسلاميّ باسم الفتوّة، ووضع نظام محكم للفتّوة تولّى هو نفسه الإشراف عليه، وإذاعته بين خاصّة المسلمين وعامّتهم على حدٍّ سواء، وبثّ روح الجهاد والأخلاق الإسلاميّة الحميدة في فرق الفتوّة العسكريّة الإسلاميّة في مقابل وحشيّة الفرنجة والمغول.

٣. استطاع الخليفة النّاصر لدين الله بالفتوّة استعادة بعضًا من هيبة الخلافة العبّاسيّة في حقبة حرجة من تاريخ الأمّة الإسلاميّة حيث اجتمع عليها: الفرنجة، والمغول، والحشّاشون، وكثير من الفئات الضّالة.

٤. الفتوّة الجديدة لم تمنح منتسبيها الحصانة من المساءلة والعقاب، بل كلّ مَنْ كان يرتكب جرمًا تتمُّ محاسبته وفق القوانين المرعيّة.

٥. انتشرت الفتوّة في مختلف مناطق العالم الإسلاميّ وقتذاك، وفي بلاد الأناضول وآسيا الصّغرى عُرفت باسم الأخيّة، وقد أُعجب بها، وبنظامها، وجماعاتها الحرفيّة ابن بطوطة عندما زار المنطقة في بداية القرن الثّامن الهجريّ، فذكر كثيرًا من أحوالها، ولطائف منتسبيها، وشيوخهم.

التّوصية

لا شكَّ لديَّ في أنَّ الأوضاع الّتي يعيشها العالم الإسلاميّ في هذه الأيام بما فيه من أحزاب، وجماعات، وفرق، وما لها من أنظمة وقوانين، أغلبها لم يُحقّق للأُمّة إلى ما فقدته من عزٍّ وسؤدد بين الأمم، وعليه فإنّني أُوصي المهتمّين بإعادة العمل بنظام الفتوّة مع مراعاة أحوال العصر الّذي نعيشه وحاجاته.

المصادر والمراجع

المصادر

- ابن بطوطة (١٩٨٧/١٤٠٧)، محمد بن عبد الله (ت٧٧٩هـ)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار (رحلة ابن بطوطة)، تقديم وتحقيق محمد العريان، مراجعة وفهرسة مصطفى القصاص، ط١، دار إحياء العلوم، بيروت.
- ابن جبير (٢٠٠٠)، محمد بن أحمد (ت٦١٤هـ)، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ضبطه ووضع فهارسه محمد زينهم، ومحمد عزب، دار المعارف، القاهرة (ذخائر العرب: ٧٧).
- الذّهبيّ (١٩٩١)، محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ)، الإعلام بوفيات الأعلام، ط١، تحقيق رياض عبد الحميد مراد وزميله، دار الفكر المعاصر، بيروت.
- الذّهبيّ (١٩٩٧/١٤١٨)، محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ)، العبر في خبر مَنْ عبر، نسخة محقّقة على أُصول مخطوطة، إشراف مكتب البحوث والدّراسات في دار الفكر، ط١، دار الفكر للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت.
- أبو شامة المقدسيّ (١٩٧٤)، عبد الرحمن بن إسماعيل (ت٦٦٥ هـ)، تراجم رجال القرنين السّادس والسّابع، المعروف بالذيل على الرّوضتين، دار الجيل، بيروت.
- أبو شامة المقدسيّ (١٩٩١-١٩٩٢)، عبد الرحمن بن إسماعيل (ت٦٦٥ هـ)، عيون الرّوضتين في أخبار الدّولتين النوريّة والصّلاحيّة، تحقيق أحمد البسيوميّ، وزارة الثّقافة، (إحياء التّراث العربيّ:٨٨، ٩٠)، دمشق.
- أبو شامة المقدسيّ (١٩٧٤)، عبد الرحمن بن إسماعيل (ت٦٦٥ هـ)، كتاب الرّوضتين في أخبار الدّولتين، دار الجيل، بيروت.
- الصفديّ (١٩١١/١٣٢٩)، خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ)، نكت الهميان في نُكت العُميان، وقف على طبعه أحمد زكي بك، المطبعة الجمالية، مصر.
- ابن العماد الحنبليّ (١٩٧٩/١٣٩٩)، عبد الحي بن العماد (ت١٠٨٩ هـ) شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب، ط٢ منقّحة، دار المسيرة، بيروت.
- العينيّ (٢٠٠٤/١٤٢٥)، محمود بن أحمد (ت٨٥٥ هـ)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزّمان، ط١، تحقيق محمود رزق محمود، مطبعة دار الكتب والوثائق القوميّة، القاهرة.
- أبو الفداء (١٩٩٧/١٤١٧)، إسماعيل بن علي (ت٧٣٢ هـ)، المختصر في أخبار البشر، علّق عليه ووضع حواشيه محمود ديُّوب، دار الكتب العلميّة، بيروت.
- المقريزيّ (١٤١٨ /١٩٩٧)، أحمد بن علي (ت٨٤٥ هـ). السّلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت.
- ابن منظور (د. ت.)، محمد بن مكرم(ت٧١١هـ). لسان العرب، دار صادر، بيروت.

المراجع

- أمين، أحمد (٢٠١٢)، الصّعلكة والفتوّة في الإسلام، مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، القاهرة.
- جواد، مصطفى (١٩٥٨/١٣٧٧)، الفتوّة وأطوارها، وأثرُها في توحيد العرب والمسلمين، مجلة المجمع العلميّ العراقيّ، المجلد الخامس، مطبعة المجمع العلميّ العراقيّ، ص٤٦- ٨١، بغداد.
- الدّسوقيّ، عمر (١٩٥٩)، الفتوّة عند العرب أو أحاديث الفروسيّة والمُثل العليا، ط٣، مكتبة نهضة مصر، القاهرة.
- شير، آدي (١٩٠٨)، الألفاظ الفارسيّة المعرّبة، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت.
- عفيفي، أبو العلا (٢٠١٥)، الملامتيّة، والصّوفيّة، وأهل الفتوّة، بغداد: منشورات الجمل، بيروت.
- كاهن، كلود (١٤١٠/١٩٩٠)، الحركات الشّعبية والاستقلال الذاتي في المدن الإسلاميّة خلال القرون الوسطى، مجلة الاجتهاد، العدد (٦)، السنة الثانية، ص١٥٢، بيروت.
- محمد، عبد العزيز (د. ت)، الفتوّة في المفهوم الإسلاميّ: دراسة في الأخلاق الإسلاميّة، دار الوفاء لدنيا الطّباعة والنّشر، الإسكندريّة.
- منصور، أحمد صبحي (٢٠٠٩/٢/٨)، جماعات الفتوّة وصفحة من تاريخ المسلمين الاجتماعيّ، مجلة الحوار المتمدّن، عدد (٢٥٥١).